

من الذاكرة..

المجددون في الإسلام

د. محمد صابر عرب

الشيخ/ عبد المتعال الصعيدي (١٨٩٥ - ١٩٧١م)، هو أحد علماء الأزهر الكبار، شغل عدة وظائف إلى أن انتهى به الأمر أستاذًا بكلية اللغة العربية، ثم عضواً بمجمع اللغة العربية، كان صاحب مشروع إصلاح كبير في التعليم والفكر الإسلامي، عرفته الأوساط الثقافية منذ أربعينيات القرن الماضي وحتى وفاته ١٩٧١م.

الأستاذ عبد المتعال الصعيدي كتب العديد من المؤلفات من أكثرها شهرة: القضايا الكبرى في الإسلام، وتاريخ الجماعة الأولى للشبان المسلمين، و"المجددون في الإسلام"، وهو من أهم مؤلفاته على الإطلاق، فقد تناول فيه - المجددون من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري - من خلال دراسة عميقة، استعرضت عوامل نهوض المجتمعات الإسلامية وتدهورها، بعمق ورؤية علمية رصينة.

لقد جاء هذا الكتاب البديع وكأنه قد لمس لب المشكلة التي يعاني منها المسلمون الآن حينما اعتقد بعضهم أن الإسلام قد بني على العبادات فقط. وقد

بالغ البعض في أمر هذه العبادات حتى ابتدعوا في الإسلام "رهبانية" فيقضوا حياتهم في قيام الليل وصوم النهار، حتى إذا جاء موسم الحج هرعوا إليه كل عام. وكأن هذا هو كل الدين، بينما أغفلوا ما ينهض بالمسلمين في دنياهم من علم وإعمار في الأرض.

يقدم الشيخ عبد المتعال الصعيدي شرحاً وافياً لفقه الحياة، فلا يقتصر الأمر في الإسلام على ما يصلح الآخرة وحدها، بل إن ما يصلح الدنيا ويحقق مصالح الناس في معاشهم لا يقل أهمية عما يصلح آخرتهم، لأن العبادة في الإسلام، لا يقصد منها مجرد التعبد، ولا مجرد الخضوع لله تعالى، لأن الله غني عن عبادتنا، وليس في حاجة إلى إظهارنا الخضوع له، وإنما يقصد منها في الأغلب أمور تعود علينا بالمصلحة في دنيانا.

لقد كان المؤلف على معرفة دقيقة بحقيقة الإسلام ومقاصده النبيلة، حينما أكد على أن الله سبحانه وتعالى قد شرع لنا هذه العبادات بهدف مصالح الناس الدنيوية، لكي يثيبهم عليها في الآخرة، فالإسلام ليس دين عبادة فقط، وإنما هو نهضة دينية ومدنية، تستهدف النهوض بالمسلمين في شتى مناحي الحياة.

لقد كان المؤلف وهو من علماء الأزهر الكبار على معرفة حقيقية بمقاصد الشرع، الذي استهدف النهوض بالمسلمين والارتقاء بمعارفهم الحياتية، علماً وفكراً وثقافة. وهذه هي وظيفة الإسلام الكبرى.

والرسول ﷺ، قد كفل بهذه الغاية مصلحة الدنيا والآخرة. ولم يرجح فيها كفة مصلحة منهما على الأخرى.

لقد ارتضى البعض أن يأخذ من الإسلام ما يعتقد بأنه يحقق مصالحه الخاصة، اعتقاداً بأن الاكتفاء بالعبادة، بل والمبالغة فيها تضمن له الجنة، بينما أغفلوا الجانب الأصعب الذي يعود على الفرد والمجتمع عموماً، وهو إعمار الأرض بالمعنى العام وشيوع الفكر الحر المستنير، لقد كان الأستاذ عبد المتعال الصعيدي معبراً عن حقيقة الإسلام حينما مس مشكلة كبيرة تتعلق بآداب الحوار، وخصوصاً مع غير المسلمين، ولهذا يقول الله تعالى: { كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ } { الأنعام (١٠٨) }، فليس من الإسلام أن نشتم ما زين لهم، بل علينا أن نترفق في الحوار معهم. وليس من وظيفة المسلم أن يعاقب مخالفيه في العقيدة سواء بالقول أو الفعل، وإنما الوظيفة الحقيقية أن يكون المسلم قدوة في أقواله وأفعاله، وليس من مهامه أن يفتش في ضمائر الناس، وأن يتلمس عوراتهم.

لقد حدد المؤلف مشكلة المسلمين الحقيقية، في جمودهم وجهلهم بالإسلام الحقيقي، وانحرافهم عن الغاية التي تسمو بالعلم والأخلاق، وأنهم بهذا صاروا عبئاً على الإسلام بدلاً من أن يكونوا قوة له.

وإذا كان المؤلف قد حدد المشكلة التي أعاققت المسلمين عن النهوض بدورهم في إعمار الأرض، فإنه قد حدد ملامح الطريق المؤدي إلى النهوض والإعمار، وهو أن نفهم الدين على حقيقته وأن نعمل به، وأن نضاعف من عنايتنا

بإنماء حياتنا المدنية لكي يبقى دينًا طاهرًا نقيًا، وأن تكون الدعوة إليه دعوة كريمة بريئة، تجتذب القلوب بما في نفوس أهلها من طهارة وبراعة دون غلظة أو شدة، وأن القوة هي آخر ما يلجأ إليه الإسلام مع أعدائه، وأنه لم يلجأ إليها في سبيل الدعوة إليه، وأن الإسلام قد سبق كل النظريات الفكرية الحديثة حينما أكد على حق الإنسان في الاختيار قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ الكهف ٢٩ .

وإذا كان الإسلام قد سبق إلى إعلان هذا الحق باعتباره حقًا أصيلاً من حقوق الإنسان – حق الحرية الدينية - فإن هذا الكتاب يعد بمثابة قراءة واعية، جديدة للإسلام وخصوصاً فيما يتعلق بفقته المصلحة واتساع الاجتهاد، لكي يواكب الإسلام مشاكل الحياة المعقدة، وفكرة التسامح بمعناها الحقيقي.

لعل ما جاء في هذا الكتاب من عالم أزهرى كبير يعد بمثابة رد على دعاة التشدد، وأصحاب الفكر الضيق وأنصار انقسام الأمة بدعوى حماية الإسلام.

د. محمد صابر عرب

رئيس الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق
القومية المصرية

Email: chairman@darelkotob.gov.eg